إضاءة

ثمّة ثلاثة أجيال من الباحثين الذين أغنوا معرفتنا النظرية بالوقف في البلقان وتجلّياته في تطوُّر الحياة الحضرية. ومِن الجيل الجديد يبرز المؤرّخ الألباني إدوارد تساكا، الذي صدر له حديثاً عن «معهد التاريخ» في تيرانا كتابٌ بعنوان «الأوقاف وتأثيرها الاجتماعي في ألبانيا خلال العهد العثماني»

استكمالُ ما بدأه حسن كلشي

إدوارد تساكا
أوقاف ألبانيا منذ الحكم العثماني

محمد م. الأرناؤوط

تزامَن وصول العثمانيّين إلى البلقان، في منتصف القرن الرابع عشر، مع وجود النظام الإقطاعي في أوروبا الشرقية، والذي تميَّز بكثرة القلاع التي تضمّ أحياء سكنية داخلها وتُحيط بها بعضُ الضواحي السكنية، في مقابل قلّة المدن والسكّان بسبب الأوبئة (الطاعون)، وهو ما جعل الحكم العثماني لاحقاً يرتبط بطفرةٍ عمرانية في المنطقة كان للوقف دورٌ مهمٌّ فيها؛ فقد كان عددُ المدن قليلاً، وكانت كلُّ «مدينة» أقرب إلى القرى الكبيرة؛ لأنّ عدد سكّانها كان يتراوح بين ألف وأربعة آلاف نسمة، في حين أنّ «مدن الوقف»، التي ظهرَت لاحقاً، كانت مُدناً بمعنى الكلمة، بفضل المنشآت الدينية والاقتصادية والثقافية التي ارتبطت بالأوقاف الجديدة (جوامع وحمّامات وخانات وأسواق ومدارس إلخ..).

هكذا، فإنّه ليس من المستغرَب أن نجد الآن في البلقان مدناً مرتبطةً أسماؤها بالوقف (مثل: غورني وقف، ودونيي وقف، وإسكندر وقف، وغيرها). ولدينا عشرات المدن الجديدة التي ارتبط تأسيسُها ونموُّها بالوقف، بل إنّ اثنتَين منها تحوّلتا إلى عاصمتين: سرايفو في البوسنة، وتيرانا في ألبانيا.

وبسبب غنى المنطقة بالأوقاف، تطوّرَت الدراسات البلقانية حول الوقف، وخاصّةً في يوغسلافيا السابقة التي عرفت انفتاحاً مبكّراً على تركيا والدراسات العثمانية. ويمكن القول إنه لدينا ثلاثة أجيال من الباحثين الذين أغنوا معرفتنا النظرية بالوقف في البلقان وتجلّياته في تطوُّر الحياة الحضرية. ومن هؤلاء العالِم حسن كلشي (1922 - 1976) الذي تمرُّ هذه السنة مئوية ميلاده، حيث كانت رسالته للدكتوراة، التي ناقشها عام 1960، في «قسم الاستشراق» ببلغراد عن «أقدم الوثائق الوقفية في اللغة العربية في يوغسلافيا»، والتي أبانت عن دور الوقف في التطوُّر الحضري خلال الحكم العثماني في مناطق يوغسلافيا السابقة.

ويمكن القول هنا إنّ الجيل الثالث يتمثّل الآن في المؤرّخ الألباني إدوارد تساكا، الذي نَشر له أخيراً «معهدُ التاريخ» في تيرانا كتابه «الأوقاف وتأثيرها الاجتماعي في ألبانيا خلال العهد العثماني».

وفي الواقع، يمكن مقارنة هذا الكتاب بأطروحة حسن كلشي، التي نُشرت لاحقاً بالصربوكرواتية (1973) وبالألبانية (2012)، وألهمت الجيل الثاني من الباحثين، من حيث إنّه يمكن أن يكون مكمّلاً لما بدأه كلشي ومُلهماً للجيل الثالث من الباحثين في مجال الوقف. فقد غطّى كلشي، في عمله، مناطق جنوب يوغسلافيا ذات الغالبية الألبانية، في الوقت التي كانت فيه ألبانيا منغلقة على هذا النوع من البحث خلال الحكم الشيوعي، بينما يأتي كتاب تساكا (أو كلشي الجديد) ليغطّي ألبانيا بكاملها، وهو ما يُكمل الحلقة الناقصة في سلسلة الدراسات الوقفية المتخصّصة التي تشمل البلقان.

في الجانب النظري حول أصول الوقف وتطوُّره عبر التاريخ الوسيط (حيث إنّ الدراسات السابقة كانت تركّز على التأثيرات المصرية القديمة والنبطية والرومانية والفارسية والتركية القديمة)، نجد أنّ إدوارد تساكا يُقلّل من شأن التأثيرات التركية القديمة في آسيا الوسطى، باعتبار أنّ الأتراك كانوا ينتمون أكثر إلى البدو الرحّل إلى أن انتقلوا واستقرّوا في الأناضول، حيث أضحت المؤثّرات البيزنطية أكثر وضوحاً في إماراتهم، وخاصّة في الإمارة العثمانية التي تطوّرَت بسرعة إلى سلطنة، بما في ذلك الوقف.

في هذا السياق، يستفيض تساكا في الحديث عن تطوُّر منشآت الوقف الخيري في الدولة البيزنطية (الكنائس والمنشآت الاجتماعية والصحّية التي تقدّم خدمات مجّانية للمحتاجين)، والتي كان يؤسّسها ويرعاها الأباطرة أنفسهم، وهو الأمر الذي سيظهر مع السلاطين العثمانيّين الأوائل، وبالتحديد مع أورخان الذي سيبني عام 1324م خانقاه للدراويش مع ما يتبعها.

ومع عبور العثمانيين للدردنيل عام 1354 وانتشارهم التدريجي في البلقان وصولاً إلى عام 1371م، حينما أصبحت عاصمتهم (أدرنة) في أوروبا، نجد هذا الاهتمام يتزايد مع السلاطين مراد الأوّل وبايزيد الأوّل ومراد الثاني، ثم مع الصدور العظام والوزراء الذين أخذوا يقلّدون السلاطين في إنشاء الأوقاف الضخمة التي تطوّرَت عنها المراكز الحضرية الجديدة بمسحة إسلامية جديدة. ونظراً إلى أنّ العثمانيّين انتشروا في البلقان في الكيانات التي تمخّضَت عن الإمبراطورية الصربية بعد انهيارها عام 1355م، لا يفوت المؤلّف أن يلاحظ أيضاً أنّ الصرب اهتمّوا أيضاً بالأوقاف تحت تأثير بيزنطة، وبنوا الكثير منها من كوسوفو إلى فلسطين (دير الصرب بالقدس). ومن ناحية أُخرى، يتوقّف تساكا عند بُعد آخر لهذا الاهتمام العثماني ببناء المنشآت الخيرية - سواء في تقاطع الطرق المهمّة أو في المراكز الحضرية الجديدة - التي تُقدّم خدمات مجّانية للوافدين إليها بغضّ النظر عن ديانتهم، ألا وهو المتعلق بـ «استمالة» السكّان المسيحيّين إلى الدين الجديد. فنظراً إلى أنّ الدولة العثمانية كانت أوّل دولة في أوروبا تقبل تعدُّد الأديان ولم تأخذ بالمبدأ السائد «الناس على دين ملوكهم»، لم تكن هناك هيئة أو مؤسَّسة رسمية تُعنى بنشر الإسلام، ولكن ذلك تُرك تحت هذا المصطلح العربي الذي دخل العثمانية (استمالة)، لتقوم به تكايا الدراويش في تقاطُع الطرق والمنشآت الموقوفة في المراكز الحضرية (العِمارة التي تقدم وجبات مجّانية مرّتَين في اليوم وغيرها). ومع تذكيره بما سبق كلشي إلى التنبيه إليه مِن دَور الوقف في الازدهار العمراني، يجد المؤلّف في ألبانيا منطقةً غنية بالأدلّة والأمثلة على هذا الدور للأوقاف الجديدة التي أُنشئت هناك، سواء من قبل السلاطين أو من قبل الصدور العظام والوزراء الألبان الذين أسلموا وصعدوا بسرعة في الهرمية العثمانية. ومن هؤلاء لدينا ميراخور إلياس بك الذي وُلد في قرية باناريت Panarit في جنوب شرقي ألبانيا، وآثر أن يعود إليها ويرحل فيها بعد مجد عسكري وسياسي في الهرمية العثمانية، التي كانت تسمح لابن فلّاح بسيط أن يصعد فيها وحتى أن يتزوّج ابنة السلطان. التحق إلياس شابّاً بالجيش الانكشاري بعد أن أسلم وبرز بشجاعته، ممّا أهّله للصعود، وخاصّةً بعد أن شارك في فتح القسطنطينية عام 1453م مع السلطان محمد الفاتح الذي زوّجه ابنته. ونظراً لخدماته، فقد منحه السلطان الجديد بايزيد الثاني أراضيَ واسعةً حول قريته التي وُلد فيها، والتي قام بوقفها لتخدم النواة العمرانية الجديدة باسم كورتشا Korça التي أسّسها في نهاية القرن الخامس عشر ووثّقها أخيراً في الوقفية المؤسّسة لنواة المدينة الجديدة التي تحمل تاريخ 1 رمضان 910 هجرية/ 5 شباط/ فبراير 1505 ميلادية.

(كاتب وأكاديمي كوسوفي سوري)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

> يُكمل الكتاب حلقةً ناقصة في سلسلة الدراسات الوقفية

> يُوضّح دورَ الوقف في تأسيس مدن بأكملها في البلقان

بيرات، جنوب وسط ألبانيا، من المدن التي أسهم الوقف في تأسيسها (Getty)

في الحياة الاجتماعية

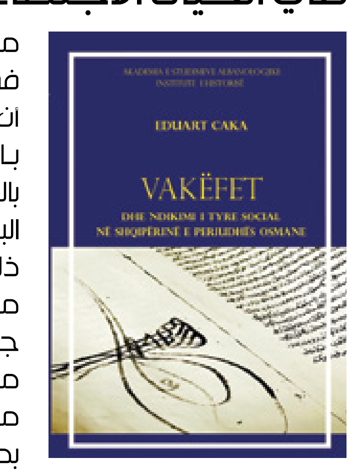

مع الأخذ بعين الاعتبار تزايُد الاهتمام في المنطقة العربية بالأوقاف، نجد أن ما تُرجم من الدراسات التي تتعلّق بالأوقاف في البلقان لا يكاد يُذكر بالمقارنة مع نتاج ثلاثة أجيال من الباحثين المتخصّصين فيها، ومِن ذلك هذا الكتاب الضخم (516 صفحة من الحجم الكبير/ الغلاف) الذي يحمل جديداً؛ سواء في ما يتعلّق بتطوُّر مفهوم الوقف، أو التعريف بمجال محدَّد - ألبانيا - تجلّت فيه الأوقاف بدورها في الحياة الاجتماعية.

تصويب

في خِلْساتٍ ستأتي

عبد الكريم الطبال

وحشةُ الطريق

خِلسةً
أتلفَّتُ للقادمينَ
وهم كالشموسِ
التي لا تغيبْ
أركضُ
خلف قطيعٍ
من الغيمِ
ليس قريباً
وليس لديَّ عصا
لأهشَّ بها
إنْ قرُبتْ
وليس لديَّ بياضٌ
لأكتبَ مرثيةً
إنْ بعُدْتْ
وفي خلساتٍ
ستأتي
سيلحقنا القادمون
الشموسُ
الجباهُ النَّبيةُ
فإذا بالطريقِ
يُضاءْ
فنمشي مع القادمينْ
في الطريق المُضاءْ

أمٌّ حائرة

غيمةٌ حائرةٌ
أطفالُها
يتمنَّون الهبوطَ
إلى بلد العشبْ
وهيَ تخافُ
إذا هبطوا
أنْ لا يعودوا
ولِذا
هي تبكي
وهم يهبطونْ.

(شاعر من المغرب)

من الأراضي والمنشآت إلى النقود
ثورة فقهية

يُوضّح إدوارد تساكا، في كتابه، دورَ الوقف في تأسيس عدّة مدن؛ مثل بتشين، وبيرات، وتيرانا التي أصبحت عاصمة ألبانيا عام 1920

نصبٌ تذكاري في كورتشا، جنوب شرق ألبانيا، والتي أسّسها إلياس بك نهاية القرن الخامس عشَر (Getty)

حسب فلسفة الوقف الذي يُراد منه أن يبقى قائماً «إلى أن تقوم الساعة»، كان على الواقف أن يحرص على بناء منشآت تُوفّر بتشغيلها الدخل اللازم لتغطية نفقات المنشآت الأُخرى التي تُقدّم خدمات مجانية. وبذلك، دخل ميراخور إلياس بك التاريخ بوصفه «مُؤسّس» مدينة كورتشا التي تطوّرَت بسرعة وأصبحت من أهمّ المدن في ألبانيا.

وبالإضافة إلى ذلك، يُوضّح إدوارد تساكا، في كتابه، دورَ الوقف في تأسيس عدّة مدن أُخرى؛ مثل بتشين، وبيرات، وتيرانا التي أصبحت عام 1920 عاصمةَ ألبانيا. بالإضافة إلى ما سبق، شهد البلقان في مطلع الحكم العثماني تطوُّراً جديداً عُدَّ «ثورة في الفقه المتعلّق بالوقف»؛ ألا وهو وقف النقود. فقد كان الشائع هو وقف الأراضي والخانات والحمّامات والأسواق وغيرها لتأجيرها لصرف العائد منها إلى المنشآت الأُخرى التي تحتاج إلى نفقات (الجوامع والمدارس والمكتبات وغيرها).

ولكن مع وقف النقود، أصبحت المَبالغ الموقوفة تُقرض بفائدة قليلة (بالمقارنة مع الربا) إلى التجّار والحرفيّين، ويُصرَف العائد منها إلى المنشآت التي تحتاج إلى نفقات. وفي هذا السياق، يكشف إدوارد تساكا عن جانب مهم يتعلّق بألبانيا؛ وهو قيام النقابات (أو الأصناف كما كانت تُسمّى) بتأسيس صناديق تضامُنية لرعاية أعضائها؛ حيث كانت أموال هذا الصندوق، أو جزءٌ منها، توقف وتُقرض للتجّار والحرفيّين ويعود العائد منها لإغناء تلك الصناديق التضامنية. وفي هذا القسم بالذات، استفاد تساكا من دفاتر النقابات التي كانت توثّق كلّ شيء. وبالتالي نجد هنا نموذجاً مبكراً للبنوك الاجتماعية، حيث إنّ القروض تُسجَّل باسم المقترض مع الفائدة والرهن لتأمين ردّها إلى الصندوق، الذي يستفيد منه كلُّ أعضاء النقابة في حالة الطوارئ. ونظراً إلى أنّ ألبانيا بقيت متعدّدةً دينيّاً، وخاصّةً بعد قدوم اليهود الذين طُردوا من الأندلس خلال الحكم الإسباني الجديد، يكشف المؤلّف أيضاً عن أنَّ الأوقاف لم تعد مقتصرة على المسلمين، بل أصبحت معروفة وموثّقة في السجلّات العثمانية منذ وقت مبكر.

وهكذا يلفت تساكا النظر إلى أنّ عائد الأوقاف المسيحية في لواء يانينا في عام 1530 كان 5663 أقچة (العملة التي كانت سائدةً في الدولة العثمانية)، بينما كان عائد الأوقاف الإسلامية 3250 أقچة فقط. ولا شكّ أنّ هذا الفارق يرتبط أيضاً ببدايات انتشار الإسلام بين الأرثوذكس في ألبانيا الجنوبية، والذي انتشر هناك بنسبة أقلّ بالمقارنة مع الكاثوليك في ألبانيا الشمالية.

الأرناؤوط ...

إطلالة

تحطيم الشكل

ممدوح عزام

يقول الناقد يوزيبو رودريكو (كتاب «وليم فوكنر في صخبه وعنفه») إن فوكنر قد تلبّسته المواد التي يحملها، وإن ذاته المبدعة تعذّبت، وقد وجد أن الشكل الروائي المتوفّر بين يديه لم يعد قادراً على التعبير عن قلقه. ولهذا فإنه قد اخترع شكلاً كي يدسّ داخله عالَمه كلّه. وسوف يعترف التاريخ الأدبي به، ويقر «اختراعه» بوصفه إنجازاً روائياً جديداً يُضاف إلى تاريخ الرواية.

اللافت هو أن الناقد يستخدم تعبير «حطّم الشكل»، وقد لاحظ أن أمر فوكنر كان وصل من قبل إلى دوستويفسكي، وإلى جيمس جويس، بينما يذكر غيرُه أن مارسيل بروست ينتمي أيضاً إلى العائلة ذاتها. فكلّ واحد من هؤلاء كان إنجازه الأساسي، في سياق عمله، تحطيم الشكل الروائي الذي كان سائداً قبل أن يكتب. وسوف نرى في سياق الرواية العالمية أن تحطيم الشكل ليس تخريباً، بل جديدٌ مختلف يقدّم لنا أعمالاً مثل «الصخب والعنف» أو «الإخوة كارامازوف» أو «يوليسيس».

لماذا يحطّم الروائيُّ الشكلَ الروائي؟ الحقيقة أنّ كلّ ناقد من أولئك النقّاد الذين تحدّثوا عن هذا الإجراء كان يفسّره بالقول إن الحاجة إلى المعنى هي التي كانت تستلزم تجاوز الشكل السائد. فالحاجة إلى المعنى هي التي تقود الروائي إلى البحث عن صيغة جديدة للتعبير، إذ لا يمكن السيطرة على المعنى الجديد دون شكل ملائم يقدّم لنا اقتراحات جديدة تماماً في مجال الإبداع لم تكن موجودة من قبل، أي من قبل أن يتمّ تحطيم السائد والثابت الذي يتّسم بالجمود.

ومع ذلك فإن الشكل مظلومٌ في أكثر الثقافات، وفي الغالب أن أكثرية البشر يستصغرون شأنه، ويقلّلون من أهمّيته. بل إن من بينهم مَن يستسهل السطو عليه، بينما يمسك بين يديه مضموناً قوياً مستريحاً ينتظر مَن يقدّم له خدمة العرض المناسب، وقد نال المعنى أو المضمون احتراماً كاد أن يصل إلى حدود التقديس. وربما كانت سهولة السطو على الشكل . وهو نشاط آخر يتّسم بالكسل والبلادة . في ظلّ غياب المحاسبة النقدية (السلمية طبعاً) هي التي تتسبّب بهذه الغارات المتتالية التي تُشنّ اليوم على الأشكال الأدبية.

لكن الشكل ماهرٌ في نهاية الأمر. ويمكن استعارة التوضيحات من حقل آخر، فالثورات مثلاً تستهدف شكل الأنظمة القائمة كي تأتي بشكل جديد يستوعب الأهداف والتطلّعات الجديدة، ومن غير الممكن الاستيلاء على سلطة، وإنشاء سلطة مختلفة، دون تحطيم شكلها.

فإذا تقاعستْ عن تحطيم الشكل، كما تقاعس ثوّار كومونة باريس، بحسب ماركس، فلم يحطّموا شكل الدولة التي استولوا عليها، فإنك سوف تدفع الثمن، كما دفعوه. وإذا استوليت على الشكل القديم، بينما كنتَ تحمل مشروعاً للبناء في الرواية، كما في الحياة نفسها، فإن العواقب سوف تبدأ من السطحية والتفاهة والاستهتار بالكتابة الروائية، كما في هذه البضائع الروائية التي نراها. وقد ينتهي الأمر إلى الكارثة كما هو حال الثورات العربية وغير العربية التي نسيتْ، بل تجاهلت، تحطيم شكل الدولة البوليسية التي استولت عليها.

(روائي من سورية)

فعاليات

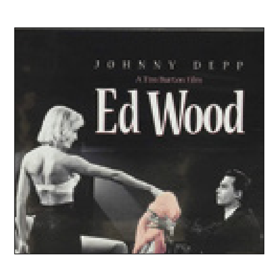

تعرض «مؤسّسة عبد الحميد شومان» في عمّان، عند الثامنة من مساء الثلاثاء المقبل، فيلم **إد وود** (1994) للمخرج الأميركي **تيم بيرتون**. يتتبع الفيلم سيرة المخرج وكاتب السيناريو الأميركي (1924-1978) الذي عُرف بأفلامه الغامضة وحبكاته الغريبة التي لاقت نجاحاً واسعاً في خمسينيات القرن الماضي.

حتى الأول من آب/ أغسطس المقبل، يتواصل في «قصر عائشة فهمي» بمجمع الفنون القاهري معرض **الفن المصري في عشرينيات القرن الماضي**، الذي افتُتح في الأول من الشهر الجاري، في استعادة للعقد الذي شهد سجالات بارزة في الثقافة العربية من خلال عرض تسعين عملاً لعشرين فناناً، منهم: **محمود سعيد** و**محمود مختار** (العمل) و**راغب عياد** و**جورج صبّاغ** و**إيمي نمر** وغيرهم.

يحتضن «مسرح محمد الخامس» بالرباط، عند الثامنة من مساء الإثنين، السابع والعشرين من الشهر الجاري، عرض **حمام العيالات** من إعداد وإخراج الفنانة المغربية **لطيفة أحرار**. يتناول العمل مجموعة فنانات قرّرن عرض مسرحيتهنّ التي تدور أحداثها داخل حمام تقليدي خلال فترة الحجر الصحي بعد انتشار كورونا.

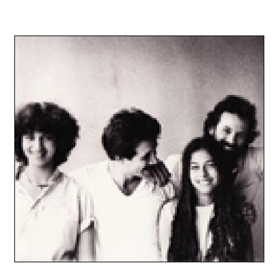

على هامش **أيام بيروت السينمائية**، تستضيف «دار النمر» في العاصمة اللبنانية، حتى مساء الغد، معرضاً تسلّط فيه الضوء على أعمال و تجربة المصوّر اللبناني **نبيل إسماعيل**، حيث تعود إلى تغطيته لبعض من مجريات الحرب الأهلية ببلده، وكذلك على مشاركته ممثّلاً في فيلم **حروب صغيرة** للمخرج **مارون بغدادي**.